

أنا مل المطر

شعر: إباء اسماعيل

العتمُ جامحةٌ خُطاهُ ..

وغموضُهُ يرنو إليَّ

يلقُني ...

وغموضُهُ المفتونُ لم يهدأ

وَلَا هدأت يَدَاهُ !

هل كان يسقيني سنا نبضات قهوتِهِ

الشَّهِيَّةِ

أَمْ هِيَ احترقت سواداً

كَي يُعَانِقَنِي مَدَاهُ !؟ ...

* * *

وَيَدِي وَإِنْ لم تشتعل ،

هِيَ طفلةٌ تاهتْ وأكثر

عن يديكَ ...

هَرَبْتَ لِتَسْرُقَ
بَعْضَ جَنَاتِ الْهَوَى
مِنْ مِعْصَمَيْكَ
وَتَدُوبُ هَاتِيكَ الْمَلَامِحُ
فِي سَوَادٍ أَوْ أَنْيْنٍ ...
شَحَنَتْهُ غُرْبَتُنَا وَأَشْجَارُ الْحَنِينِ !..

* * *

كَمْ كَانَ مُنْطَفِئاً
وَكَمْ كُنْتَ الشَّرَارَةَ
حِينَ تَقْدَحُ عَتَمَهُ
حَلماً لِأَقْمَارِ السِّنِينِ ؟ !..
نَمراً أَتَى ...
يَا لِيَتَنِي أَصْبَحْتُ غَابَتُهُ
لِأُبْقِيهِ طَلِيقاً فِي هَوَاهُ !..
مَلَأَ الْمَكَانَ
أَضَاءَهُ بِسَوَادِهِ
وَعُجْبَارِهِ
وَحُرُوبِهِ
وَأَنَا الْحَرِيقُ ..

وهو الطريق
ملاً المكانَ
وَهَيَّمَنْتُ أَنْفَاسُهُ
ملاً البياضَ سَوَادُهُ
يا لبيتي كنتُ النَّهَارُ
أنا هُنَا

وهو الآنَا
صوتي صَدَاهُ..

وَفمي نَدَاهُ !!؟
هَلْ يَخْتَفِي فِي الصَّمْتِ
أَمْ أَنِّي أَرَاهُ وَلَا أَرَاهُ !!؟..

* * *

في جفنِ الليلِ ،
تَلَمَّسْتُ جَنَاحَيْكَ يَضْمَانِ جَنُونِي ...

هَلْ كُنْتَ العِثْمَ

وَكُنْتُ النَّارَ ؟

أَمْ كُنْتَ النُّورَ يَمْدُ لِرُوحِي

زَنْبَقَهُ وَخُطَاهُ !!؟ ...

* * *

وتراني ،

تصمتُ

تغمضُ، كالنورِ الغامضِ

في شريانِ قصيدةٍ! ...

كغموضِ القلبِ يُشعلهُ الليلُ

ويهوي بينَ الحزنِ وبينَ الآه! ...

* * *

أفتحُ عينيَّ المغمضتينِ ..

من بعدِ الغربةِ والسَّفرِ الأطولِ

من ظلي ..

أفتحُ شاشةَ أحلامي

والقلبُ صريعُ

لا تخرجُ منه الكلماتُ! ...

يسكنني الليلُ ويجرُّ

أن يملأَ قلبي بالطوفانِ ...

ها يختبئُ البركانُ :

تحتَ وسادتنا ،

في شمسِ جوارحنا ..

مثلَ رياحٍ يرسلها حمماً نارياً ،

لكنني لم أخرج من صمتي

وغموضي

وذهولي

وجنوني ...

كم أبحثُ عنكَ أنا

لترافقني في رحلة ضوءٍ

أو عثمٍ

أو أمطارٍ ..!

كم أنتَ أنا؟! ...

* * *

وتعانقُ سورة شوقي

والأحرفُ لا تخرجُ من فمك الوردِي..

من يمنعُها؟

من يُخفي ضوءَ براءتها الأولى،

تدخلُ كهفَ الحبِّ الآتي

من يومِ قيامتها الجمراتِ..

ها لُغَةٌ تتسامى في جنَّتها العليا

وتتوه الكلماتُ ...

وأرى نوركَ في ذاتي

شَقَافاً يَدْخُلُنِي
مَمزُوجاً بِدِمَاءِ الْغَرِيبَةِ
حِينَ يَصِيرُ الْأَحْمَرُ فِينَا
طُوفَاناً مِنْ وَرْدِ النَّبْضَاتِ ...
وَخَلَايَاكَ تُسَابِقُهَا
آلَافُ الْأَحْصِنَةِ النَّارِيَّةِ
مَنْ يَكْبُحُهَا !؟
بَلْ أَيُّهُ رُوحٌ تَسْكُنُهَا ؟
أَيُّهُ شَمْسٌ ؟
فِي بَرْهَةٍ هَمَّ
وَجِرَاحِ سَكُونِ تَحْمَلُنِي
كِي تُشْعِلَ ثَلْجَ حَنِينِي
وَطَناً مِنْ قُبَلَاتٍ
وَكَأَنَّ الْهَمَّ يَقُودُ مَلَامِحَنَا
لِمَفَاتِيحِ النَّبِوءَاتِ ...
لِكَأَنَّ غَيُوماً عَاشِقَةً
تُطْرُقُ فِي دَاخِلِنَا
كَمْ هَذَا الْعَتَمُ يَفَرِّقُنَا ...
وَيُقَرِّبُنَا ... وَيُسَامِرُنَا ...

يقتلنا .. يُمطِرُنَا!!..

كان الطفلُ الغامِضُ يعرفنا

إذ أبحثُ عنكَ وتبحثُ عني

كانَ يُجيبُ : هُنا

قُبَلَتَاكَ الشَّتَوِيَّةُ

وهُنا

يُدُكُ المبلولةُ

من وهج الشوق الحاضر

تُمَطِرُ فيَّ شموعاً تكبرُ في الدُّوبَانِ

يا وطناً أحضنه أبدأً

يا جبلاً كـ (سُموكي ماونتِين) * ،

يتصاعدُ منه حليبٌ ودُخانٌ ...

يا عِشْقاً يقطفني من بردِ الغربةِ

والأحزانُ ...

أنتَ المَطَرُ الـ يألُفني ،

يُغمرني

بفصولِ أربعةِ

بل أنتَ الزمن الـ بللني،

خارج أزمان الصحراء... ..

وأحبُّكَ

يا مطراً أغزَرَ من أنهار الموسيقى

حين تمرُّ مياهُ أصابعك

الأعمق من بئرِ

أو جذرِ أو موجِ

يجتاحُ نزيهَ جنوني

وأحبُّكَ

يا غصناً ينمو فوق جذور دمي

يا غيماً يهطلُ طفلاً

داخلَ مملكتي ،

مطراً لامرأةٍ واحدةٍ

مطراً للشعرِ وللنثرِ

غريباً وأليفاً

مثلَ طحينِ الرغبةِ ،

حينَ يصيرُ رغيفاً لقصيدةٍ ،

أو كعكةَ عيدي

يا عيدَ الحبِّ ...

يا قَمري العربيِّ،

يفتّحُ في روعي قنديلَ ضياءٍ! ...

هل تأخذني عيناك
إلى أجنحة الصَّيفِ العربيَّة؟! ..
هل تُصْبِحُ بَحْرِي العربيِّ
وهلْ أُمسي نوريَّةً
فوقَ شواطئِ قلبك؟! ..
يا بَحْرِي
يا قَمْرِي
لا تُبقيني نوريَّةً شاردةً
بينَ نجومِ الغربيَّةِ والآه ...
لا ... لا تمحُ أريجك منْ وهجي،
حينَ أصيرُكَ شمساً
لا ... لا تتبُعدُ عن جرحي
فأنا الشَّرْقُ يُحاصِرُنِي :
ورداً ،
عشقاً ،
جَمراً ومَتاه ...
هيا خُذْ بِجَنَاحِيَّ إلى مائك
هيا اغسلني بربيعِ دمائك
هيا ...

حَرَّزَنِي

مَنْ تَلَجَّ طَوَاحِينِي الْغَرَبِيَّةُ! ...

* سموكي ماونتِن: أَي (جبل الدُّخَان) ، فِي ولاية تنسي الأمريكية.